العنوان:	دور القرويين في الإشعاع الفكري بين المشرق والمغرب على عهد السلطانين سيدي محمد بن عبدالله وإبنه المولى سليمان
المصدر:	بحوث الندوة العلمية الدولية : جهود علماء القرويين في خدمة المذهب المالكي : الأصالة والأمتداد - الرابطة المحمدية للعلماء - المغرب
المؤلف الرئيسي:	الحسني، عبدالحق بن المجدوب
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
مكان انعقاد المؤتمر:	فاس
رقم المؤتمر:	1
الهيئة المسؤولة:	مركز دراس بن إسماعيل لتقريب المذهب والعقيدة و السلوك
الشهر:	جمادي الأولى / أبريل
الصفحات:	575 - 584
رقم MD:	585606
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	المؤتمرات و الندوات ، المذاهب الفقهية ، العلماء القرويين ، العالم الإسلامي، المغرب
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/585606

دور القرويين في الإشعاع الفكري بين المشرق والمغرب على عهد السلطانين سيدي محمد بن عبد الله وابنه المولى سليمان

د. عبد الحق بن المجدوب الحسني(•)

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

أما بعد، فاسمحوا لي ـ معاشر السيدات والسادة ـ أن أشكر المساهمين في هذا العمل الرفيع، وأجدد شكري الجزيل للساهرين على تنظيم هذه الندوة المباركة.

أما مداخلتي المشار إليها أعلاه فأتناول محاورها من خلال الحديث عن:

ـ دور القرويين في الإشعاع الفكري داخل المغرب وخارجه.

ـ مكانة العلماء لدى السلطان سيدي محمد بنعبد الله.

ـ نشاط مجالس المولى سليمان العلمية على الصعيد العربي والإسلامي.

على أن تستهل بمقدمة نطل فيها على الموضوع، وتذيل بخاتمة تتضمن وجهة نظر. فأقول وبالله التوفيق:

(•) أستاذ التعليم العالي بكلية الشريعة، جامعة القرويين، فاس.

مقدمة:

معاشر السيدات والسادة:

لم يكن يمر أكثر من نصف قرن من الزمان على تأسيس مدينة فاس حتى شمخت ببنائها ومؤسساتها، وارتفعت معالمها، وعلَتْ مناراتها، وتعددت منابرها، وطار ذكرها، وانتشر صِيتُها، وغدت مَقصِدَ الوافد والوارد من كل حدبٍ وصوب، وتأسست فيها أعظم جامعة في الدنيا وهي جامعةُ القرويين التي قامت واستمرت، وتواصلت مراحلُ نهضتها وأطوار انبعاثها وإشعاعها، ولعل عظمة هذه الجامعة تتجلى في براعة استهلال إنشائها من لدن امرأة من صميم الشعب، وهي أمُّ البنين فاطمة الفهرية من مالها الذي ورثته عن أبيها وزوجها سنة 245هـ/ 859م.

١. دور القرويين في الإشعاع الفكري داخل المغرب وخارجه:

القواسم المشتركة بين جامعة بشرق العالم الإسلامي وأخرى بغربه:

لعل من أعظم أسباب التواصل بين المشرق والمغرب وأكبرها وجود جامعتين إسلاميتين عتيدتين في كل من المغرب ومصر، ظلتا منارتي إشعاع فكري عربي، ومازالتا مصدر وحدة واستقرار ومصدر تقدم وأصالة، وكانت رحلات كل من الطلبة والأساتذة والشيوخ بين الجامعتين من أهم وسائل التواصل ومن دوافع استمراره ودوامه واتصاله.

وهكذا ظل التواصل قائما مستمرا بين القرويين والأزهريين ورجالاتها وأقطابها وعلمائها الذين أخذوا يرحلون إليها للأخذ عن شيوخها والرواية عنهم، والتلقي منهم وملازمتهم فترات تطول أحيانا وتقصر أحيانا أخرى، ثم يعودون إلى بلادهم ليعلِّموا ويفيدوا، أو يظلون في القرويين لمواصلة الدرس والعطاء، ويصبحون ضمن أساتذتها وشيوخها، أو يختارون القضاء والفتوى تُظلّهم رحابها، ويقبل عليهم طلبتها وسكانها.

لقد حفلت صفحات تاريخنا بمآت بل بآلاف أولئك الوافدين على القرويين من مختلف البلاد، المقيمين منهم والراحلين عنها بعد قضاء وطرهم واستكمال دراستهم وتعليمهم، كما يزخر تاريخنا بمئات الشيوخ والعلماء المغاربة من رجالات القرويين ممن تستهويهم الرحلة لطلب العلم والإفادة، والذين كانوا يتوجهون باستمرار ويقصدون المشرق للأخذ والرواية تارة، أو للإقامة والتدريس والتعليم هناك.

وهكذا استمرت الحركة العلمية مزدهرة أيما ازدهار على مر العصور السابقة، وظلت في أوج عزّها على عهد العلويين، وخاصة عند كل من السلطان سيدي محمد بن عبد الله وابنه السلطان مولاي سليمان، وهذه خلاصة أو جرد ببعض ما قام به كل منهما في هذا المجال.

2 . مكانة العلماء لدى:

أ- السلطان سيدي محمد بن عبد الله:

يطلعنا التاريخ على أن السلطان محمد بن عبد الله كان يعقد مجالس علمية يطبعها الحوار والمناقشة وتدور بين العلماء من جهة، وبينهم وبين السلطان من جهة أخرى وذلك إما في قضايا علمية أو قضايا واقعية تمسُّ الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها، وكانت استشارته للعلماء متعددة، ذلك أنه ومنذ أن تولى عرش المغرب وهو يجالس العلماء ويذاكرهم ويستصدر فتاواهم[1] مستمعا إلى آرائهم باحترام ووقار، ولقد تجاوزت استشاراته علماء المغرب إلى علماء المشرق، ومن ذلك إرساله كتابا إلى علماء المذاهب الأربعة بجامع الأزهر بمصر متضمنا مؤلَّفَه «الجامع الصحيح الأسانيد» المستخرج من أربعة مسانيد، ليتطلع رأيهم وهو نفس ما طلبه من الفقيه الشيخ محمد التاودي بنسودة، كما أشرك معه عالما مصريا في تأليف كتابه (فتح

(1) نشر المثاني (4/ 125).

الباري) في اقتطاف أزهار المسانيد لتخريج أحاديث البخاري» وهو الشيخ محمد الأمير المصري المالكي.

إن الحرية الفكرية التي طبعت معاملة السلطان للعلماء هي نفسها التي ميزت أبحاثه وتآليفه العلمية[1]، لذلك يستشير كلَّ من توسم فيه النصحَ الجميل، سواء كان منتميا إلى مملكته أو خارجا عنها، وسواء كان الحق في المذهب المالكي أو خارجه، ولذلك دعا إلى التفتح على المذاهب الفقهية السنية، خاصة في مجال العبادات والاستفادة منها جميعا، ونبذ التعصب للمذاهب[2]، الذي هو ضد الحرية الفكرية، وقد صرح برأيه في الأئمة الأربعة في غير ما موضع من مؤلفاته، ومما قال فيهم: «اعتقادي في الأئمة الأربعة أنهم على هدى... وكل من تمسك بمذهب من مذاهبهم فقد تمسك بالعروة الوثقى، فكلهم والحمد لله آخذون بكتاب الله وسنة رسوله.

لقد استفاد الفقهاء والعلماء في عهده من الحرية الفكرية، والتي من صورها رفضهم التقليد الأعمى، وتميزهم بأصالة الفكر واستقلاله حتى عن شيوخهم الذين تأثروا بهم[3] وأنهم انتقدوا كبار العلماء السابقين، كما تتجلى هذه الحرية الفكرية كذلك فيما دار من جدلٍ حول بعض المسائل الفقهية، حتى تلك التي استفتى السلطان العلماء فيها، كما **هو الشأن في مسألة دفع الخيل للعدو التي صدرت فيها فتاوى متعارضة**. على أن بعض الأعلام المغاربة في هذا العصر تجاوزت شهرتهم المغرب إلى المغرب العربي والمشرق.

بل إن فيهم من قام بالتدريس هناك والبعض استقر نهائيا[4]، ونادرا ما انتقل أحدهم إلى مذهب فقهي آخر غير المذهب المالكي، وهؤلاء كثيرون أقتصر على ذكر بعضهم:

(1) الحياة الأدبية (273).
(2) الملك الصالح (104).
(3) العلماء المصلحون (1/ 271 ـ 272).
(4) الرحلات العلمية (1/ 407).

ـ محمد بن محمد الروداني (1094هـ) درَّس بالمغرب والجزائر وتونس ومصر والحرمين والشام، ثم حصلت له شهرة واسعة في الحرمين حتى عُدَّ إمامها[1].

ـ محمد بن أحمد الورزازي (1137هـ) الضليع في العلوم العقلية والنقلية، حج مرتين واستقر بمصر نهائيا، وقام بالتدريس بمصر والحجاز.

ـ محمد بن عبد الله السجلماسي الفاسي (1141هـ) المتبحر في علمي المنقول والمعقول، درَّس بفاس، ثم هاجر سنة 1125هـ إلى المدينة المنورة وبقي يدرِّس بها إلى أن توفي.

ـ محمد بن عبد الرحمن بنزكري (1144هـ) الذي رحل إلى المشرق وناظر بعض علماء الأزهر في مسألة شرب الدخان فأسكتهم[2].

ـ أحمد بن حسن المكودي المعروف بالورشاني الفاسي الذي هاجر إلى تونس فأصبح رئيس المالكية بها[3] وعالمها، وأحد أعيان المدرِّسين بها، واحتل أعلى مقام في رئاسة الديوان الشرعي المالكي بتونس.

ب . السلطان المولى سليمان:

3 . نشاط مجالسه العلمية على الصعيد العربي والإسلامي

تابع المولى سليمان سياسة والده سيدي محمد بن عبد الله على أصعدة متعددة وعلى رأسها الاهتمام بالحركة العلمية في فاس العاصمة العلمية، حيث جامع القرويين ينبوع العلم، أو في عواصم دول شقيقة عربية وإسلامية، وهكذا فقد حاول توسيع دائرة

(1) الفكر السامي (2/ 281).
(2) نشر المثاني (1/ 295)
(3) الفكر السامي (2/ 290 ـ 291).

التعاون والتبادل الثقافي مع دول العالم العربي والإسلامي، عن طريق التواصل والتوادد، والمواساة، والمناصرة والمؤازرة وشدِّ العضد. وأيضا بتقريب كبار علمائه، واستدعاء أئمتهم وأعيانهم وإشراكهم في أعمال مجالسه العلمية والأدبية، وقضاياها المطروحة على بساط البحث والدراسة، بكيفية مباشرة أو غير مباشرة، بعقد مجالس علمية معهم بالداخل والخارج ولاسيما حول القضايا الدينية **الموحدة المشتركة والعامة،** المتعلقة بمصالح وخير المسلمين قاطبة، في مشارق الأرض ومغاربها، توطيدا لدعائم المجلس العلمي العربي الإسلامي، وكلبنة الأساس والنواة الأولى للمؤتمر الإسلامي المنشود ـ **الذي لم يكن ميلاده بالمغرب من باب الصدفة** ـ والبذرة الطيبة للمجالس العلمية الحسنية الرمضانية وللأكاديمية المغربية، اللتين تكرسان هذه المجالس العلمية الحسنية المتوارثة لملوك الدولة العلوية الشريفة، وتشكلان امتدادا لها، واستمرارا لرسالتها الخالدة.

ولقد تبادل الرسائل والأطروحات العلمية والمكاتبات الإخوانية مع ملوك ورؤساء وعلماء وقضاة العالم العربي والإسلامي[1]، ولاسيما بالحجاز وتركيا ودول المغرب العربي.

وفي إطار هذه السياسة الثقافية الرشيدة استدعى **العلامة ابن الشاهد الجزائري واستقبله معززا مكرما،** مع صفوة من مشايخ أئمة العلم العظام بالقطر الجزائري الشقيق[2] (...) وتكريسا لسنة والده سيدي محمد بن عبد الله، كان يرسل باستمرار أموالا طائلة إلى علماء وأشراف مصر والحرمين الشريفين بواسطة شيخه ابن عبد السلام الفاسي الذي كان أثيرا وموثقا لديه، وذلك مع ركب الحجاج[3].

(1) النهضة العلمية لابن زيدان م خ م بالرباط رقم 3177 (ص53).
(2) الحلل البهية للمشرفي (ص177).
(3) النهضة العلمية لابن زيدان (ص51).

(وفي هذا الصدد أكرم وفادة الشيخ أحمد التيجاني المتصوف، الذي جاءه وافدا من الجزائر سنة 1211هـ ومستجيرا بأهل البيت من ظلم الأتراك وتعسفهم، بعد أن كاتبه مستأذنا في الإقامة بالمغرب، ولم يكتف باستضافته وإيوائه، بل أجاره وقربه، حتى صار من رواد مجالسه العلمية السلطانية، لمكانته العلمية العالية...)[1].

ولعل أهم مجالس المولى سليمان العلمية التي عقدها بالخارج، ذلك المجلس التاريخي الذي عقده بالحجاز سنة 1227هـ في إطار الصلات العلمية والثقافية بين البلدين، ولمحاورة علماء الحجاز تحت الرئاسة الفعلية لكل من السلطان سعود، والأمير المولى إبراهيم بن السلطان المولى سليمان، حول المذهب الوهابي، ومبادئه وأبعاده وأهدافه...

وقد ضَمَّ هذا المجلس ـ الذي انعقد في العاصمة السعودية ـ أعيان علماء الحجاز، وجهابذة علماء المغرب الشيوخ السادة: الفقيه العلامة سيدي محمد بن إبراهيم الزَّداغي، والفقيه العلامة القاضي سيد العباس بن كيران الفاسي، والفقيه الشريف سيدي الأمين بن جعفر الحسني الرُّتبي، والفقيه المؤقت السيد عبد الخالق الوديي[2].

وقد بدأ المجلس أعماله بقراءة جواب السلطان المولى سليمان على الرسالة التي وجهها محمد بن عبدالوهاب إلى الآفاق داعيا لمذهبه الوهابي، والتي وصلت إلى المغرب بواسطة مفتي الديار التونسية[3] الذي بعثها إلى علماء فاس، أعضاء المجالس العلمية السلطانية، وكان لها صدى وأثر طيب، وفي هذه الجلسات أظهر السلطان السعودي للأمير التعظيم الواجب لأهل البيت النبوي الشريف[4] وجلس مع أعضاء وفده من العلماء المغاربة بتواضع، وبالغ في الاحتفاء بالوفد، ورجع الوفد إلى المولى سليمان

---

(1) الاستقصا للناصري (8/ 105).
(2) الاستقصا للناصري (8/ 118 ـ 120).
(3) الجيش لأكنسوس ورقة (172 ـ 173).
(4) الاستقصا للناصري (8/ 119 ـ 120).

فأطلعه على نتائج الرحلة، وأكد له أعضاء الوفد أنهم لم يجدوا لدى السلطان سعود إلا الاهتمام بالشريعة الإسلامية ومحاربة البدع .... [1].

خاتمة:

إن التأثير الديني والعلمي والثقافي لجامع القرويين في فاس وغيرها من المدن، بل وفي كل بقاع العالم الإسلامي والعربي ـ سواء في هذه الحقبة أو الحقب السابقة عنها ـ واضح لا يُنكره إلا جاحد، حتى إن ذكر فاس تشعر بذكر القرويين، والأدلة على ذلك كثيرة ومتعددة نكتفي برأي العلامة محمد المختار السوسي الذي قال رحمه الله: «إن كل من عرف فاسا – وما أدراك ما فاس، واستحضر ما كتب حولها منذ القرن الرابع إلى الآن كتابة ناقصة مجحفة، وقد أدرك الدور العظيم الذي مثلته فاس، لا في المغرب ولا في شمال إفريقيا وإزاء الأندلس فحسب، بل وفي العالم الإسلامي أجمع ـ يوقن أن تاريخها لم يكتب بعد كما يجب أن يكتب، فلو تصدى باحث أو باحثون لكتابة تاريخ فاس من نواحيها كلها، لفتحوا صفحة كبيرة ذهبيةً وهَّاجة طافحةً رُبّما تُنسي كلَّ ما كُتب عن بغداد ودمشق والقاهرة... فاس الماجدة العظيمة التي هي فاسنا كلنا، لا فاس سكانها وحدهم، لأن فاس، فاس العلم والفكر والحضارة، لا فاس شيء آخر، وإن تاريخ المغرب الثقافي العام ليكاد يكون كله كجوانب الرحى حول قطب فاس، فها أنا ذا أعلن من سوس هذه التي أولعتُ بها أن أول عالم سوسي عرفته سوس فيما نعلمه هو «وكاك» وما هو إلا تلميذ أبي عمران الفاسي ... فهي الأستاذة أمس واليوم وكلُّ أنحاء المغرب تلاميذ لها... [2].

---

(1) المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية، آسية الهاشمي البلغيتي (1 / 410 ـ 413) بتصرف.

(2) محمد المختار السوسي: سوس العالمة – المعسول (1/ 14 ـ 15).

ونختم الكلام بالكلمة الشافية لجلالة المغفور له الحسن الثاني، والتي خاطب بها المجالس الجماعية لولاية فاس يوم 6 دجنبر 1991 بمدينة مراكش، ومما جاء فيها: «... حيث إن مدينة فاس التي ليست هي مدرسة القرويين فقط، بل مدينة فاس كلها بحضارتها احتضنت المغاربة الذين أتوا من الأندلس وعجنتهم عدة قرون، وجعلت منهم مغاربة تفرقوا في مدن المغرب ... .

وأعود إلى ما كنت بدأت به لأؤكد أن التواصل بين الدول العربية والمملكة المغربية امتدَّ واستمرَّ عبر تاريخنا الطويل منذ القرن الأول الهجري عبر الرحلات السنوية إلى الحج، مرورا بالجزائر وتونس وليبيا ومصر، ثم تعزز هذا التواصل وتوثق منذ اتجه الفاطميون بجيوشهم من المغرب وفتحوا مصر والشام، فكثرت الرحلة من المغرب والأندلس إلى مصر وباقي الدول العربية، كما أن مقومات اللغة والدين والتراث المشترك بين هذه الدول كانت في مقدمة العوامل التي جعلت التواصل بيننا قائما مستمرا، في حين نجد عوامل أخرى ساعدت على هذا التواصل وغذته وقوته كالعادات والأعراف والتقاليد والسلوك، كما توّج كلَّ ذلك شدة التمسك بالإسلام، وشدة الغيرة عليه، والمحبة الكبرى للرسول ﷺ وأهل بيته الطيبين الطاهرين.